د. عبد الحميد يونس

مركز عربي للمأثورات الشعبية

(تقديم مشروع بانشائه)

لا يزال مشروع انشاء مركز قومي للفنون الشعبية العربية في حاجة الى التحقيق ولا نقول للاقتراح والدرس . ولقد سبق لكاتب هذه السطور ان استجاب لحاجة الحياة الملحة الى تنفيذ هذا المشروع ، وانه ليرجو ان نساير طبيعة الحياة في هذا العصر وهي التي تمزج بين التخطيط والتطبيق اذا ما لحت مقتضيات التطور ووظائف الثقافة الشعبية التي تتجاوز اللذة الفنية الى تدعيم الاحساس بالانتماء الى القومية والانسانية .

لقد كشفت التجربة الواعية في ميادين التربية والثقافة عن اهمية المأثورات الشعبية في حياة الافراد والجماعات ، ولم تتخلف الشعوب العربية عن الاهتمام بتراثها القومي والعمل الجاد على رعايته ، وتمييز الاصيل فيه من الدخيل والمنحول ، وعلى تصنيفه وتقويمه وعرضه للدارسين والادباء والمثقفين .

ولم يعد المأثور الشعبي « طرفة » تثير الدهشة او الاعجاب عند السائحين والاجانب ، ولم يعد من شارات الماضي وآثاره ورواسبه ، ولكنه اصبح بعد المحاولات الكثيرة الجادة للتعرف عليه من العناصر الصالحة للحياة الموصولة والتطور المستمر . ومهما اختلفت مناهج المعنيين بالتراث الشعبي ، تبعا لاختلاف التخصص في الدراسات الانسانية ، فان انشاء المراكز الخاصة بالبحث والدراسة والمتاحف المعنية بالحفظ والصيانة والعرض والمعاهد المهتمة بالمواجهة الواقعية لهذا التراث الشعبي ، تؤكد الاعتراف بقيمته ومكانته . وتفرض طبيعة هذا التراث الشعبي ومرونته وتغلغله في حياة الافراد والجماعات ، المبادرة الى انشاء مركز للفولكلور او المأثورات الشعبية على الصعيد القومي ليكون وسيلة ايجابية لتنظيم الجهود المبذولة في رعاية التراث الفني المنوع والعريق في الوطن العربي . ونحن نلح على وجوب المبادرة الى انشاء هذا المركز لاسباب ايجابية وسلبية : ايجابية تحافظ على حلقات فنية وثقافية توشك ان تتبدد ، مع ما لها من قيمة ، وما تتسم به من اصالة ... ايجابية لتبادل الخبرات والمعارف بين العاملين في هذا المجال .. ايجابية لتعريف الشعوب العربية في اجيالها المعاصرة بما لا يزال موجودا من اعمال ادبية وفنية وثقافية ، فيها من التشابه فوق ما فيها من الاختلاف .. وسلبية لانها تفرق عن علم ووعي بين الكشف والتنقيب من ناحية وبين الانتخاب والعرض على الجماهير العربية وغير العربية من ناحية اخرى ... سلبية بما تؤصله من مناهج علمية صحيحة تبرىء العمل في هذا المجال من الجمود او الانحراف .. والواقع ان ظهور منظمة التربية والعلوم والثقافة في الجامعة العربية ليشجع المتخصصين على الاستجابة لحاجة الحياة الفكرية والفنية بانشاء مركز لرعاية الفولكلور العربي او المأثورات الشعبية العربية .

اهداف المركز المقترح

ونستطيع ان نلخص الغاية الرئيسية من انشاء

هذا المركز بأنه الجهاز الذي تتركز فيه العناية بالفلكلور العربي او المأثورات الشعبية العربية على الصعيد القومي. ويقوم هذا الجهاز بثلاث وظائف تجعل نشاطه متكاملا من الناحيتين العلمية والعملية على السواء :

الاولى ـ متابعة الجهود المبذولة في الدول العربية في مجال المأثورات الشعبية ، وتأصيل مناهج العمل في هذا المجال ، مسايرة للتقدم المستمر في الدراسات الفلكلورية والانثروبولوجية والثقافية .

الثانية ـ تدريب اجيال من العاملين في جمع المأثورات الشعبية وتصنيفها وارشفتها بحيث تفيد المعاهد والمتاحف والمراكز الوطنية والمحلية بثمرات الخبرة ـ والتوجيه في المركز القومي المقترح .

الثالثة ـ تنظيم وسائل التعريف بالمأثورات الشعبية للمواطنين في العالم العربي الكبير بنشر الابحاث والصور وتبادل الافلام واقامة المعارض وانتخاب النماذج الى جانب عرض المشاهد الفنية الحية والروائع الادبية الشعبية في مناسبات قومية او انسانية . وهذه الوظائف الثلاث تجعل هذا الجهاز مركزا توجيهيا او نموذجيا (Demonstration Centre). ولا بد من التفريق بين المنظمات التعليمية التقليدية من ناحية وبين امثال هذه المراكز التجريبية او النموذجية من ناحية اخرى ، لانه يعتمد في المقام الاول على تأصيل المناهج والاهتمام باعطاء نماذج الدراسة والجمع والتصنيف والعرض الى جانب وضع برامج للتدريب تفيد من الدراسة والبحث والتنقيب والتصنيف جميعا .

ولسنا في حاجة الى اضافة الاشارة لهدف اخر يحققه هذا الجهاز ، وهو تعريف غير العرب بالتراث الشعبي العربي ، وابراز ما له من مقومات وما يحمل من ابعاد حضارية وثقافية . ولست ابالغ اذا قلت ان هذا التعريف ادخل في الواقعية واعمق في التأثير من جهود كثيرة اصبحت معادة او شكلية ، كما ان وجوه التشابه ستتجاوز ، بعد الدرس المتعمق للعناصر الثقافية ، والوظائف الاجتماعية والحيوية والفنية ، البيئة الجغرافية والاطار القومي الى الانسانية او العالمية فوق ما كان ـ وما لا يزال قائما الى الان ـ من تبادل التأثر والتأثير بين الامة العربية من جهة وشعوب العالم من جهة اخرى .

اقسام المركز

وهذا المركز ، كغيره من مراكز البحث والتوجيه والتدريب ينقسم على اساس الاهداف او الوظائف ، كما ينقسم على اساس الفروع التي تتشعب اليها المأثورات الشعبية ، وبذلك ينتظم المركز الاقسام الرئيسية الآتية :

اولا ـ الدراسة والبحث ـ وهذا القسم يتفرع بدوره الى شعب على اساس التخصص في مختلف الفروع :

أ ـ الادب الشعبي او المأثورات الشعبية الشفاهية، وتنتظم الاساطير والملاحم والسير والحكايات والقصص والظواهر التمثيلية المباشرة وغير المباشرة ، والاغاني والاناشيد والامثال والوصايا والالغاز .. ولكل طائفة من هذه الفروع شعبة تجمع الاشكال الكبيرة والمتطابقة او المقاربة ، مثل الحكاية الشعبية ـ الدراما الشعبية ـ الاغنية الشعبية ـ الامثال ـ الالغاز .

ب ـ الموسيقى والرقص ، وبينهما وبين الاغاني والاناشيد ارتباط موضوعي . ويحتاج البحث والدراسة، فوق العمل الميداني في الجمع ، الى تتبع لوظائف الاشارة والحركة والايقاع الى جانب البصر بتسجيل هذه الظواهر وتدوينها على الاساس المعترف به في العالم.

ج ـ الفنون والحرف التقليدية ، وهذه الشعبة لا تقل اهمية عن سابقاتها لانها تقوم على الاصالة وعلى العلاقة المباشرة بين الفنان وما يشكله من فن .. وتتعرض الفنون والحرف التقليدية للتبدد والاندثار امام غلبة الالة الكبيرة وامام الاشكال الوافدة من الدول التي سبقت في مجال الصناعة الالية وامام سيطرة ذوق المدنية واستغلال الفن في خلق اعمال لأسر في حاجة الى العمل.. والاهتمام بهذه الفنون والحرف التقليدية والمحافظة عليها في بيئاتها بفضل الخبرات المستفادة من مثل هذا المركز المقترح ، سيجعل العناصر الزخرفية والتعبيرية الشعبية تحتفظ بأصالتها حتى في مجالات الصناعة الالية كما حدث في كثير من الدول التي استغلت الابداع الشعبي في بعض صناعاتها .

ثانيا ـ الجمع والتصنيف والارشفة :

وهذا القسم هو بمثابة الجهاز العملي للمركز المقترح ، لانه يؤصل المناهج الحديثة في مجال المأثورات الشعبية ويتفرع وينقسم بحكم وظيفته الى ثلاث شعب :

أ ـ الجمع ، وهو يقوم الان على العمل الميداني كما عرفته فروع كثيرة من الدراسات الانسانية . ولهذا العمل الميداني اصول ويحتاج الى دراسة نظرية وخبرة عملية. ولما كان المركز المقترح تجريبيا بحكم طبيعته فمن الضروري ان ينظم بعثات ميدانية في بعض المناطق العربية للاستطلاع والجمع ، فردية وجماعية ، لتمييز مواد شعبية متكاملة او خاصة بفرع او شكل من ابداع الشعب وتفننه. والعمل الميداني ـ كما هو معروف ـ يقوم على : اختيار البيئة ـ مصنع الاستخبار ـ الحصول على المعلومات ـ تمييز المادة الشعبية ـ طرائق تسجيلها بالصورة والصوت والكتابة والتدوين ـ استكمال البيان بالوصف ـ .. الخ.

ب ـ التصنيف ، وهو عمل فني يعتمد على مناهج مقررة في الفولكلور او المأثورات الشعبية ، ويتخذ هذا التصنيف اساليب تختلف باختلاف اشكال المواد الشعبيه ومضامينها ووظائفها ، وليس مقصورا على مجرد الترتيب ، ولكنه وسيلة اساسية تعين على التتبع الثقافي للمأثورات الشعبية عبر الزمان والمكان معا . ويثمر التصنيف ما تلح الحياة الفكرية في العالم العربي عليه من وجوب المبادرة الى وضع اطالس للمأثورات الشعبية . ولقد آن الاوان لكي تخرج هذه الاطالس الى الوجود في نطاق يتجاوز المحليه الى الوطن العربي الكبير . وليس من شك في ان المركز المقترح سيعين على تحقيق هذا المشروع الجليل .

جـ ـ الارشيف ، وهو يختلف عن الارشيف الخاص بالكتب او الاثار لانه ينظم النماذج والمقتنيات والنصوص وجعل النماذج والمعلومات الخاصه بالمأثورات الشعبيه في متناول الدارسين والفنانين . ولقد برز الى الوجود الان اتجاه عالمي لتبادل الخبره والمعرفة بين العاملين في مجال الحفاظ على المادة الشعبية بل ان هناك مشروعات بدأت تتحقق باصدار ببليوجرافيا تسجل خلاصات المواد المحفوظة في المراكز والمعاهد على اختلاف الدول والشعوب واللغات .

ثالثا ـ قسم للاجهزة والآلات المستخدمة في التسجيل السمعي والبصري ، وهذا القسم هو العصب الحيوي في الجمع والتصنيف والارشفة لانه يسجل بامانة الظواهر والاشكال وينتزعها من التغير والانقراض . ولذلك كان الاعتماد عليها بالغ الاهمية في مراكز المأثورات الشعبية . والتدرب عليها يتجاوز الفنيين في ادارتها واصلاحها الى العاملين في مجال الجمع والتمييز والتسجيل والارشفة .

وهذا القسم ليس مقصورا على مجرد الحصول على الآلة وصيانتها ، ولكنه يتجاوز ذلك الى التدريب على استخدامها وعلى اصلاحها . ذلك لان العامل الميداني مطالب بقدر من الخبرة في استخدام اجهزة التسجيل البصري والسمعي واصلاحها والافادة الى اقصى حد ممكن من الاشرطة والافلام وصيانتها .

رابعا ـ المكتبة ، ومن الطبيعي ان تضم المصادر الاساسية في البحث والدراسة وتأصيل مناهج الجمع والتصنيف والارشفة وان تستوعب الدوريات والمجلات المتخصصة وتتابع نتائج المؤتمرات وحلقات البحث في فروع المأثورات الشعبية .

واهم من هذا كله ان تحتفظ المكتبة : أ ـ بالنصوص التي تضمها الكتب الرخيصة التي كانت متداولة بين جماهير الشعب العربي على اختلاف اوطانه .

ب ـ التسجيلات الصوتية على أقراص الجرامفون والاشرطة ، وهذه الشعبة الصوتية من اهم دعامات المكتبه بل انها جزء من تراث اعان التسجيل في المحافظة عليه.

جـ ـ الصور الفوتوغرافية التي لا بد من تصنيفها في مجموعات على الاساس الموضوعي او البيئي ، وهذه الصور تعد من المراجع الرئيسية في المأثورات الشعبية وهي التي تعطي للنصوص البعد الثقافي والحضاري والتي تضيف اليها ما ينبغي من تفاصيل .

د ـ صور شعبية تحكى الرسوم الجدارية او تنتخب من الرسوم التي كانت متداولة بين الجماهير الشعبية والتي استخدمت في الزينة .

هـ ـ الافلام التسجيلية التي تقرن الحركة الى الصورة والى الصوت ، وهي وثائق نفيسة تساير طبيعة المأثور الشعبي في اعتماده على اكثر من وسيلة من وسائل الاتصال والتعبير . اما الجهاز الاداري الذي يقوم على تنظيم العمل وضبطه فليس في حاجة الى ان نفصل الكلام فيه هنا لان من اليسير تصور هذا الجهاز قياسا على المراكز المماثلة .

علاقة المركز المقترح باليونسكو

وان اهتمام جامعة الدول العربية بانشاء هذا المركز في اطار منظمة التربية والعلوم والثقافة العربية سيجعل من اليسير تنظيم العلاقات الايجابية بينه وبين المراكز المماثلة : اولا ـ في العالم العربي . ثانيا ـ في الدول الشرقية والغربية التي عرفت بتجاربها الممتازة في مجال المأثورات الشعبية . ثالثا ـ تنظيم علاقة المركز بالمجالس العالمية والدولية المتخصصة في الاداب والفنون والحرف الشعبية . وسيكون من المهم معاونة المركز على استقدام الخبراء في الفروع التي تدل الدراسة ـ على حاجتها الى مدد من الخبرة كما تعين على عقد المؤتمرات وحلقات البحث واقامة المهرجانات ، او الدعوة اليها والمساهمة فيها بين الدول العربية ، مع الافادة المنظمة من المؤتمرات العالمية والدولية التي تعقد بانتظام في الشرق والغرب .

ويتكامل نشاط المركز المقترح مع سائر الهيئات والمعاهد المعنية بالتنمية الثقافية والاجتماعية ، ويكون ذلك بوضع برامج متكاملة لها حتى تتبادل فيما بينها نتائج العمل الميداني والدراسة المنهجية والوثائق التي لها قيمتها في الدراسات الانسانية مجتمعة .

ولن يمضي طويل وقت حتى يثمر هذا المركز المقترح :

أ ـ الدورية الخاصة به وهي الدورية التي تسجل

ـ التتمة على الصفحة ـ ٨٠ ـ

مركز عربي للمأثورات الشعبية
ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ٥٣ ـ

الفولكلور واثره في المحافظة ..
ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ٥٩ ـ

او تلخص نشاطه الميداني وتورد وتتابع كشوفه ومقتنياته ، وتعرض الدراسات والابحاث التي يقوم بها الخبراء والمتخصصون في المأثورات الشعبية العربية . وتبادل هذه الدورية مع ما تصدره المراكز الاخرى في العالم سيمنح الدارسين العرب واجيال المدربين مجالا افسح للدراسة والموازنة ، ومعرفة ادق لطبيعة المأثور الشعبي من ناحية ولقيمة التراث العربي من ناحية اخرى .

ب ـ اصدار كتب ونشرات ومجموعات صور ومدونات موسيقى ورقص وتبادلها ايضا مع الهيئات المتخصصة في الوطن العربي والعالم، ولهذه المطبوعات، فرق قيمتها العلمية والفنية ، تأثير اقوى في التعريف الحضاري بالشعب العربي ، ذلك لانها تعتمد على الوثيقة والنموذج ، والدراسة الايجابية ، وهو الاتجاه الذي تأخذ به دول اخرى عرفت مكانة المأثور الشعبي واستغلته لا في البيئات العلمية والفنية فحسب ، ولكن في مجالات السياحة والاقتصاد ايضا .

واذا استجاب هذا الجيل لحاجة الحياة الى رعاية الفنون الشعبية العربية وانشأ المركز التجريبي الخاص بهذه المأثورات ، فانه يكون بذلك ، قد اضاف الى علوم الاثار ، وما ادت اليه في الكشف عن الاصول الحضارية لامة العرب دعامة عظيمة تمنح الملامح الحية والوثائق الاصيلة للدراسات الانسانية والقومية .

القاهرة

مكتبة النوري
دمشق ـ تجاه البريد العام
وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى دور النشر اللبنانية والعربية في القطر السوري .

لهذا كله يضع المخططون التربويون الفلسطينيون نصب اعينهم مبدأ رئيسيا لا حيدة عنه كلما خططوا وكلما امعنوا في الاهتمام بتربية اجيال فلسطين الجديدة المحررة الا وهو الاهتمام بالتراث الشعبي الفلسطيني (١٣) والعربي وتطور مختلف اوجهه وتنمية المواهب عند النشء والافادة منها في التعبئة والاعلام .

الهوامش

١ ـ في داخل الوطن المحتل نذكر (جمعية انعاش الاسرة) في مدينة رام الله التي تصدر مجلة (الاسرة والمجتمع) وهي مجلة فولكلورية فلسطينية وفي خارج الوطن المحتل نذكر على سبيل الامثلة مركز الابحاث في بيروت التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، ونواة مركز فولكلوري ، وكذلك المركز الفولكلوري العراقي ببغداد الذي القى على عاتقه الاهتمام بفولكلور العرب .

٢ ـ الشرق الخالد تاليف عبدالحميد زايد ص ٢٨٦

٣ ـ الفتح القدسي ـ عماد الدين الاصفهاني طبعة ١٣٨١ القاهرة ص ٢٨١ .

٤ ـ مزيد من التفاصيل في كتاب (اوراق فلسطينية) معد للطبع بقلم كاتب هذه الدراسة .

٥ ـ مزيد من التفاصيل في مقال بعنوان : خمسون سنة من المقاومة في الفولكلور الفلسطيني ـ نمر سرحان مجلة شؤون فلسطينية عدد ١٨ ص ١٢٥ ـ ١٤٩ .

٦ ـ الوان من الاغاني الشعبية الفلسطينية ـ اسامة ناجي يوسف ، مجلة التراث الشعبي العراقية عدد ٢ ، ٣ سنة ٦ سنة ١٩٧٥.

٧ ـ للاطلاع على القصيدة كلها انظر مجلة (فلسطين الثورة) العدد ٨ السنة الاولى الصادر في ١٦ ـ ٨ ـ ١٩٧٢ الصفحة : ١٨ .

٨ ـ مزيد من التفاصيل في كتاب (اوراق فلسطينية) معد للطبع بقلم كاتب هذه الدراسة .

٩ ـ الحكاية الشعبية الفلسطينية ، نمر سرحان ـ المقدمة ، مجتمع القص في فلسطين ـ الساريسي ، مجلة التراث الشعبي العراقية عدد ٢ السنة الخامسة .

١٠ ـ تاريخ بئر السبع وقبائلها، عارف العارف عن الفروسية ص ١٢٢.

١١ ـ اوراق فلسطينية .

١٢ ـ قرية ترمسعيا « دراسة المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني » مركز الابحاث الفلسطيني الفصل العشرون ص ٢٣٣ .

١٣ ـ فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني ، اعداد قسم التخطيط التربوي التابع لمركز التخطيط لمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٧٢ ص ٩ .